

الجغرافيا والحرب في معركة أكتوبر المجيدة

يقلم : د. حمدي هاشم خبير جغرافيا بيئية

أكد الصينيون منذ خمسة وعشرين قرناً من الزمان، أن ارتقاء فن الحرب للتمكن من قيادة جيش رهن بمعرفة أساسيات الجغرافيا ومحددات شخصية المكان. وهكذا صارت بين الجغرافيا والحرب علاقة عضوية مبنية على الحكمة لإحراز النصر العسكري وتحقيق مغام السياسة والاقتصاد. ولن يخفي هذا الدور المتبادل بين جغرافية البيئة ومسرح الحرب مهما تقدمت صناعة السلاح وتطورت تقنيات السيطرة الشاملة على المكان. ولا تزال مناطق النزاع والصراع البشرى في مواقع متفرقة من العالم وراء استمرارية تطوير أسلحة الدمار الشامل والرعب الكوكبي. ورغم ظهور القوة العسكرية الفائقة تظل العناصر الجغرافية الأساسية على الدوام والاستمرار عناصر هامة في إدارة المعركة وتحديد مكاسبها المنظورة وغير المنظورة. هذا ولا يقف دور علم الجغرافيا في الاستراتيجية العسكرية عند دراسة الأرض والبيئة ووضع الخطتين الطبيعية والبشرية، بل تمتد جذوره وتفريعاته إلى قاعدة المعلومات لدعم كافة عناصر القيادة والسيطرة على مسرح العمليات العسكرية في الجو والبر والبحر. وتقوم الجغرافيا العسكرية بدراسة علاقة خصائص جغرافية المكان بمختلف الأنشطة العسكرية، لفك شفرة النسق المكاني وتفعيل الخريطة الذهنية لدى أفراد منظومة القوات المسلحة من أجل رفع كفاءة التنبؤ والتحكم في الأحداث، من خلال تحديد القوى والأهداف والمواقع الحيوية والاستراتيجية وكذلك رصد وتوقع مشكلات مناطق النزاع.

تحدثت استراتيجية حرب أكتوبر المجيدة إجماع خبراء العالم وإسرائيل في عبور قناة السويس المائي واختراقها السائر الترابي للضفة الشرقية من القناة، علاوة على كشفها خدعة إسرائيل الكبرى ونقاطها الحصينة بامتداد خط بارليف المنيع، لتسقط أسطورة جيش إسرائيلي لا يقهر. حيث حددت الخطة الشاملة للحرب الوطنية المحاور الرئيسية لتوزيع القوات على الجبهة، بصورة تخدم سرعة نقل الجنود والعتاد والانتشار الأمن داخل مسرح العمليات العسكرية، ورصدت مناطق ضعف القوات المعادية ضمن الخطة الحربية لشن الهجوم المباشر واحتواء مسرح العمليات وشل حركته بقطع خطوطه للإمداد والتموين، بعد إحكام السيطرة على خطوط المواصلات. ولما كان الممر المائي لقناة السويس يشهد حركة عبور أكتوبر 1973، من خلال رؤوس الكباري الخمسة لنقل القوات البرية المصرية وعتادها الحربي، توقف نقل البترول الخام إلى إسرائيل عبر خليج السويس الذي أصبح ممراً مغلقاً أمام الملاحة الإسرائيلية، حيث تقوم قوات البحرية المصرية بتأمين كافة الممرات والمنافذ المائية لمنع وصول الإمدادات الخارجية للعدو، ولا سيما القادمة من دول شرق آسيا وكذلك البترول الإيراني، عبر خطوط المواصلات الإسرائيلية في المسار البحري من مضيق باب المندب والبحر الأحمر وخليج العقبة إلى قواتها البحرية المتمركزة في كل من إيلات وشرم الشيخ على سواحل شبه جزيرة سيناء.

أنجزت قوات البحرية المصرية بنجاح تام مهامها التعبوية والقتالية جنوب البحر الأحمر، نتيجة سبق القوات المصرية فى السيطرة اللوجستية على مجموعة الجزر الحيوية بمدخل باب المنذب، بالتوافق مع قواتها المتمركزة بميناء عدن والأخرى المنتشرة بطول البحر الأحمر وخليج العقبة، وذلك ضمن استراتيجية الخطة الشاملة لحرب أكتوبر. أما القوات الجوية المصرية ومعها قوات الدفاع الجوى فكانت وراء إحكام السيطرة وغلق حيز العمليات العسكرية أمام القوات الإسرائيلية وإجبارها على الخروج الفعلي من دائرة التدخل في وقت العبور. وذلك بعد كشف قدرات العدو الجوية والقتالية في أثناء حرب الاستنزاف مع الدروس المستفادة من ضرب الطائرات المصرية على الأرض في حرب 1967. حيث كان من المهام الرئيسية للقوات الجوية ورجال الصاعقة المصرية إعاقة مدرعات العدو من التقدم السريع غرباً باتجاه خط بارليف لمنع التقدم البرى للقوات المصرية في عمق سيناء، ناهيك عن الضربة الجوية الأولى والتأمين الجوى الشامل لكافة العمليات العسكرية في أثناء عبور قناة السويس. وهنا لا ننسى الإشارة إلى سفر "6 أكتوبر في الاستراتيجية العالمية" للدكتور جمال حمدان، الذي نشرته دار الهلال في ذكرى أكتوبر الرابع والعشرين، وقد امتلئ الكتاب بالتحليلات البديعة والمعلومات الدقيقة لتسجيل المعركة الوطنية الكبرى التي دارت رحاها على أرض سيناء والجولان بوابة مصر وعتبة سوريا على حد تعبيره.